الأب...

تعلقها لحظة سـنحت لعينيه. فقد كانت ذات جمال هادئ صارخ، يتسلل إلى الحواس في دهاء ولطف، حتى إذا تمكن واستوى، فعل فعله، ودار فيها على طبيعته حنينًا ورغبة ونداء. ثم كان لِزامًا عليهما أن يتراءيا كل صـباح، لأن عملهما كان يقتضـيهما أن يهبطا باريس كل يوم مع الهابطين.

لم يكن يعرفها، وما كان رآها، إنما كان يجد نفسـه في كل صباح جالسًا تجاه فتاة جميلة، سرعان ما أحبها، وسرعان ما ألقت أنوثتها في ذهنه إنها امرأة وديعة لينة، ضعيفة، فشرع يغزوها.

كان يحملق في وجهها، وخديها، ثدييها بشـراهة عجيبة. وكانت إذ تـدرك منـه ذلـك تحملق فيـه، فلا يردُّ عينـه عنهـا، فتضـطرب، ويصـعـد الـدم وفيرًا إلى وجنتيهـا، فتزداد جمـالًا وفتنـة، فيزداد هو شـوقًا ورغبة...

ولا يـدريـان : لا هو، ولا هي، هـل كان واحـد منهمـا يحرص أن يكون جار صـاحبه في مقعد المركبة كل يوم؟ أم هي مصـادفة سـاقها القدر وفّقت أن يلتقيا هكذا أسـبوعًا كاملًا؟... كان لا مفر بعده من أن تجري بينهما بضـع كلمات خفاف قصـار في ابتسـامة أخف وأقصـر، لعلهن كن تمتمة شـكر لقاء أن آثرها وأجلسـها في مكانه في يومٍ كانت العربة فيه ملأا بركابها...

وفي اليوم التالي تصافحا يدًا بيد، ثم تكلما، ثم تصادقا... ثم كانت له برغم ذلك شاغلًا يملأ خلايا مخه طول يومه وسواد ليلته، إلى أن يلقاها... وإنه ليرقب مشرق وجهها على فؤاده بشوق وحنين، وإنه ليفكر في نصف الساعة التي ينعم فيها بها، حتى إذا بلغا غايتهما، وآن لهما أن يفترقا، شعر بفراغ هائل يداخل نفسه؛ وتعاظمته تلك القسمة الحرام التي قسمت له من زمان حبيبته جزءًا واحدا من ثمانية وأربعين جزءًا...

ولما توثق ما بينهما اشتهى أن يكون وإياها رجلًا مع امرأة؛ ولعلها اشتهت مثلما اشتهى لأنها قالت له في صباح يوم سبت من أيام الربيع، وهما يتواعدان أن يلتقيا غدًا في مطعم فاخر :

- قبل أن نذهب أحب أن أقول لك كلمة، وأمامنا عشرون دقيقة نستطيع أن نقول فيها كلمات...

وتغافل هو عما أحس من اضطراب جسمها واهتزاز ذراعها في ذراعه وهي تلقي إليه قولها، قالت في صوت خافت :

- أحب أن تعلم أنك ستطوي نهارك مع فتاة شريفة لا تحب أن تذهب مع رجل حتى يتعهد باحترامها...

وتوهج خداها وحرّت أنفاسها وتعنّف اضطرابها، فلم تعد تملك أمر نفسها فسكتت، وسكت هو لا يدري ماذا يقول فقد كان في حسابه أنه سيمتع نفسه بكل ما يمكن أن يفعله رجل يحب فتاة. وإذ لم يحر جوابًا ثنت هي تقول :

- إنني لن أذهب معك حتى تتعهد باحترامي

ولما برحا المطعم الموعود سـارا معًا على ضـفة النهر يمتعان أعينهما بالماء الحالم في هُدَّاة الأصـيل وبالجو السـجسـج الدافئ. وكانت لمعة الضـوء تتكسـر على صـفحة الماء الحابي، والأسـماك تتواثب وتتلاعب ثم تنغمر في الماء. وأشـعت الشـمس تسـيل فتصـبغ الماء والحشـائش والأفق بلونٍ رهيب... كان كل ذلك يزيد من جمال النهر ويكسبه روعة وجلالا.

وتفاعلا في روعة هذا الجمال الضـافي فراحا يلعبان ويثبان. وراحت هي تشـتبك في ذراعه ثم تتركه لتدفعه من ظهره. ثم تجري منه ضـاحكة ثم تؤامنه لتنحني فتجمع له الزهر النامي على حافة النهر وتقدمه له أو تلقيه في الماء. وظلا هكذا - كطفلين غريرين - حتى جرت دمائهما. ثم سارا هادئين لحظة لأنها بدا لها أن تقول له :

- ماذا تضن في وقد جئت معك منفردة!

- إن هذا أمر عادي مألوف

- لا. ليس عاديًا ولا مألوف، ولكني مع ذلك لا أظن إنني أكره مثل هذا الطيش، ولي أم مريضـة ومتعبة كانت أولًا بوقتي هذا، ولم يكن يليق أن أتركها وألهو ولكن... أرجو أن لا تسيء بي الظن.

ولم يكن لديه لهذا الخلط الذي لم يفهمه سوى أن مال عليها فقبلها قبلة أخطأت خدها وأصابت أذنها. فنفرت منه كظبي مذعور وتغاضـبت عليه. ولم تطل... بل أقبلت عليه تذكره بوعده لتمهد أن يعودا - كما كانا - مرحين لاعبين.

وكان الهواء قد رق وصفًا. وسرا عطريّ الروحة والغدوة يحمل في طوايا هبته شذًا قويًا يدير الرأس حين يدور فيها عندما بدت لهما

من بعد حديقة لفاء يحبو تحتها ماء النهر، وتذِّهب ذراها أشعة الشمس الغاربة، كانت تبدو من بعد كسرادق مظلم أو ككهف عظيم. ولما قارباها أخذت هي تحدق فيها بعين بارقة مفتوحة، وقالت في صوت خافت كأنه يأتي من أعماق أعماقها.

- ما أجملها... ما أجملها!

ولما اقتحماها وسارا فيها بلغا فيها خباء بين دوحتين فارعتين لا تبلغه العين، ولا يبلغه الضوء، إلا قطعًا نثارًا كنقوش الثوب، وملأت رأسيهما فيه ريح عطرة مثيرة قوية! فجلسا حالمين تائهين... ثم تقاربا في بطئ وسكون، ثم تضاما، ثم عصفت بهما نار الرغبة فلم تملك إلا أن تحس فمه بشفتيها. فجعل يعتصرهما بجنون، ويضمها إلى صدره بشوق وقوة وعنف، وقد غابا ونسيا نفسيهما...!.

ولما أفاقت لم تكن تريد أن تصدق... ثم أخذت تصيح وتصرخ... ثم هدأت لتبكي... ثم لما فرغت لم ترد أن تسمع لكلماته وهو يفرغها في أذنيها ليخفف عنها ما بها من جزع وأسى، بل جعلت تهتف في صوت خافت ضعيف :

- رب ماذا فعلت... ماذا فعلت!

وساوره الخوف والفزع مما رأى من حمرة خديها وعمق عينيها وجعل يرتعد وهو يرجوها أن تبقى ليتفاهما، وليدبرا الأمر على قانون الواقع ولكنها تركته دون كلمة أو وداع...

ولما لقيها في اليوم التالي ألفاها ساهمة شاحبة ظاهرة الأسى، كأنها خالصة من أعقاب مرض طويل أضناها وذوب قواها. قالت له حين تصابحا في همس :

- أريد أن أتحدث إليك قليلًا...

ولما انفردا قالت له في ألم وجد :

- أنه ليحسن بنا أن نفترق، فإن من الخير ألا نلتقي بعد ذلك، وبعد الذي كان لا أحب أن أراك لأنني كنت ضعيفة ومجنونة، فليس هناك ما يبرر أن أعود لهذا الجنون وذلك الضعف مرة أخرى!.

فجعل يتوسل إليها أن تلحق به وهو يؤكد لها أنه سيصلح ما أفسده. وأنه سيتزوجها إن شاءت ومتى شاءت ولكن عبثًا ما حاول فقد رفضت أن تسمع له وتركته ومضت.

ولم يعد يراها. ومر أسبوع وأسبوع، ولم يكن يعرف مأواها، ولعله أيس منها أو لم يقطع في أمرها بأمر، لأنه ذهب مرة يفتح الباب لطارق فوجدها هي. وأثلج صدره أن شعر بها فيه، تملأه وتهدهده، ورأى ذراعيه قد التفتا عليها، وجعلتا تضغطانها في رفق وشوق...

وعاشا معًا ثلاثة شهور شعر بعدها بالملل منها، فتهابط حبه لها وشغفه بها، ونقصت رعايته إياها وعنايته بها... ثم جبن وتسافل حين ذكرت له إن جنينًا يتواثب في أحشائها فكأنما كان هذا النبأ عصًا ألهبته، لأنه فر من وجهها مسرعًا لا يلوي. واختفى... لا حذرها ولا أخبرها إلى أين... ولا هي ارتضت لنفسها أن تبحث عنه.

لقد طاوعت كبرياءها فلم ترد أن تفعل، ولم تجد في وسع عينيها سوى أمها... فتهاوت في صدرها حزينة باكية تشكو لها بثها، وترجو عندها الستر والصفح والسلوى...

وفي الجانب الآخر عاش الخاطئ المسكين عيشة مضطربة قلقة سمجة، لا معنى لها ولا غناء فيها... عاش وحيدًا منعزلا، لأن

عليه أن يعيش... كانت الدنيا في عينيه مظلمة قاتمة سخيفة لا خير فيها. ولو لم يكن لديه إلا عمله يرى فيه بضعة وجوه لمات كمدًا وملالًا... فتخامد شبابه وانطفأ نور حياته في حضيض خطيئته. وغدا على الدنيا شبحًا يود لو ينتهي.

وكان يقسو عليه ألمه أحيانًا فيضيق بوحدته فيخرج في آصال أيام الأحد ليسير ثقيلًا متباطئًا، وما هي إلا خطي معدودة حتى يجلس ملولًا ضيق الصدر، ليرى الأسر السعيدة مغتبطة هانئة بأطفالها التي تجري حولها بوجوه ضاحكة مستبشرة. وكان هذا المرأى في ذاته يزيد ألمه وحزنه، ويسلمه إلى شعور عنيف يستبد به فيشعر أن قلبه ينسحق تحت معول ضخم، فلا يملك لنفسه إلا أن يطرق ويصمت وفي ذات صباح وكان يسير شريدًا مضيعًا، لمح امرأة تتهادى بين طفلين يلعبان حولها، أما أحدهما فطفل لم يجاوز الرابعة، وأما الثاني فغلام تشرّف على العاشرة.

اهتز حين رآها وداخله نحوها شعور ما، ولما لم يكن مخطئًا جمد ولم يستطع حراكًا، فقد فَقَدَ هيمنته على نفسه، ولم يعد إلا عينًا تدور وراءها وتتابع حركاتها. وازداد يقينه حين شعر بحنين عنيف يثور في صدره نحو أكبر الطفلين عندما التفت مرة فوضحت ملامحه...

في تلك الليلة لم ينم، فقد سهَّده أمل أشرق ثم خبا. فبات فريسة تفكير مضنٍ طويل : تُرى هل هذا ابنه... وهل هي...؟ وإذا كان فماذا أستطيع أن أفعل...؟.

وزاد بلاؤه أن طُمِس على ذهنه فلم يدر ماذا يستطيع أن يفعل... ولكنه غَنِمَ أن عرف أنها تزوجت رجلًا من جيرتها وكان شهمًا فاضلًا غفر لها واعترف بابنها وعُنِي بهما...!.

وكان إشراق وجه ابنه في سماء حياته المظلمة ألمًا جديدًا فوق آلامه، إذ أشعره ذلَّ الوحدة وعذاب الحرمان، فاضطرب اضطرابًا شديدًا، وامتلكه اليأس والأسى، وأصبح لا يرجو إلا أن يضم ابنه إلى صدره ويقبله ليشبع منه شوق السنين، وليطفئ لوعة الحرمان التي شبت في نفسه فغطت آلامه جميعها.

وقام في ذهنه أن يعترض طريقها، فأسرع نحوها فأخذها من كتفها؛ فلما التفتت إليه صرختْ صرخة رعب مكتومة، وحنَتْ على ولديها فطوّقتهما وأسرعت تجري بهما.

ومر شهران يئس فيهما أن يراها أو يرى ولده. وحنق على نفسه أن حرمها رؤية ولده ولو عن بعد. فجعل يكتب لها... كتب لها نحو عشرين رسالة لم يتلقّ رد واحدة منها! فأحس مرارة الخيبة تمور في ألم الحرمان فترهقانه وتعذبانه عذابًا أليمًا.

ولما يئس أن يراها فكر وقدّر، ثم فكر وقدر، فلمعت له في ظلمة يأسه خاطرة هي أن يكتبَ لزوجها... ولما جاءه الرد أنه يسره أن يلقاه في مساء يوم معين لم يكن بأسعد حالًا مما لو كان أهمله كما أهملته هي من قبل. فقد كان دَقُّ قلبه - وهو يصعد الدرج - سريعًا مزعجًا. وكان ينتزع رجليه انتزاعًا ويراود نفسه - وهو صاعد - أن يرجع!.

وكانت ثيابُ الرجل السود ورهبته فيها وسحنته المتزنة الوقور التي طالعه بها... كان كل ذلك قد خلع قلبه وطير ما بقي له من قوة واتزان. وحين أشـــار له الرجل أن يجلس، جلس متداعيًا مذهوب العقل، ضائعًا...

قال الرجل في لهجة عميقة ورنة آسفة :

- إن زوجتي حدثتني عنك...

فرد يقول في صوت خفيض متقطع :

- إنني يا ســـيدي غير ســـعيد لأنني لا أســـتطيع أن أرى ولدي

وهب الرجل فنادى... فدخل غلام في نحو العاشرة مسرعًا إلى الرجل الذي يعيش معه على ظن أنه أبوه... ولكنه وقف فجأة حين انتبه إلى أن بالحجرة رجلًا غريبًا...

وقبله أبوه قبلة كلها حنان وعطف. وقال له مشيرًا :

- اذهب وقبل هذا الســيد الجالس هناك. وســار الطفل نحو (الســـيد الجالس هناك) وديعًا خجلًا، ضـــيق الخطى. وأحس هو - وطفله مقبل عليه - أن دُوَارًا شـــب في رأســـه حين نظر إلى عيني ابنه وهما تطالعانه وتنظران إليه.

وقام الرجل (صـاحب البيت) فدار على نفســه واتجه صـوب النـافـذة، حين وافى الولـد أبـاه، وحين فتح لـه هـذا ذراعيـه فـاحتواه فيهما، وحين أخذ يقبله بجنون في شعره وعينيه وخديه وفمه وذقنه وكل وجهه، وحين انزعج الطفل من هذه القبلات العنيفة وأراد أن يتحاشاها ويبعدها عنه، وهو يدير رأسه إلى كل ناحية ليتخلص منها فلم يستطع، لأن الذراعين اللتين أحاطتا به قد تصلبتا عليه.....

.... ثم تراخيا عنه، لأن رقة قلبه شاعت في كل جسمه، فَرَحِمه وتركه، ليمسح دموعًا انسابت من عينيه، ونهض صارخًا يقول :

- وداعًا...

وأســـرع فنزل الـدرج قـافزًا كـالهـارب، وحين احتواه الطريق انغمر في الظلام كاللص.